

سجين شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بغلام الرومانز محمود الحبيب

تمة ما نشر في العدد الماضى

- ٧ -

ذكرت أن أقرب الاخوين إلى مكاني تساقطت نفسه وذوى
عوده ، وكذلك ذكرت أن قلبه القوى انصدع وانسرفت قوته
عزفت نفسه عن الأكل وعافته ، ولم يك ذلك لما كان عليه من
قبح ووحشية ، فقد ألقنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه .
أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غمامات الجبل ، بماء أتوا
به من الخندق ، وكان الخبز الذى يلقى إلينا على حال أحسننا معها
كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فالأته آلاف السنين ،
منذ ألقى الأنسان بنى جنسه أول مرة فى الأصفاد كما يفعل
بضواري الوحوش !

ولكن ما كان ليضيره ذلك أو ليضيرنا ، لم يكن ذلك ما أذاب
قلبه وفت فى عضده ، فقد كانت روح أخى من ذلك الطراز
الذى تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان فى قصر ، إذا حيل
بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة . ولبت شعرى لم أخفى
الحقيقة وأوجل النطق بها ... لقد لفظ أخى أنفاسه

رأيت يموت ولكن واحسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه ،
لا ولم أستطع أن أمسك يده وهى تموت ولا بعد أن همدت
فيها الحياة ، لم أستطع شيئا من ذلك ولو أنى تنزيت فى الحديد
وحاولت عبثا أن أفك السلاسل وأجعل أصفادى شطرين . لفظ
أخى أنفاسه ، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق ، وقد جعلوه
هكذا قريب القرار فى مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبر

ولقد توسلت إليهم أن يمنوا على بسلة لنفسى فيدفنوا جثمانه
فى بقعة يقع عليها ضوء النهار وهى فكرة سخيفة ، ولكنها
أوحى إلى نفسى أن قلبه الذى فطر على الحرية لن يجد حتى فى

ضجعة الموت راحة فى مثل ذلك السجن

وكان أولى بي أن أكنى نفسى عناء هذا التوسل ، فما أغنى
عنى منهم شيئا ، إذ ضحكوا فى برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث
سجنوه ، وهناك رقد ذلك المخلوق الذى أجزلنا له الحب تحت
أرض منبسطة لا يثبت فوقها عشب ، تركز فوقها السلاسل
المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال !

- ٨ -

ولكن الآخر ، ذلك الفتى الحبيب الذى كان يشبه الزهرة ،
ذلك الذى أعزناه منذ أن رأت الوجود عيناه ، ذلك الذى كان
يحمل صورة أمه فى وجه صبح . ذلك الطفل الذى تحب فيه
الطفولة جميعا ، ذلك الذى كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهير ،
والذى أصبح فى السجن آخر مابقى لأعنى به ، والذى كنت من
أجله أجهد أن أبقي على حشاشة نفسى ، عسى أن يقلل ذلك من
شقاؤه وعسى أن تتاح له الحرية يوما ما ؛ أقول حتى ذلك الأخ
أيضا ، ذلك الأخ الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظا بروح ذاتية
أو موحة ، غلب على نفسه فى النهاية ورأيت يذبل كما تذبل الزهرة
على غصنها يوما بعد يوم

يا إلهي ! إنه لما يبعث الرعب فى القلوب ، أن نرى الروح
البشرية تنطلق مولية فى أية صورة وفى أى موقف ، ولقد رأيتها
من قبل تنطلق فى دم مسفوح ، ورأيتها فى البحر النائر تجاهد الموج
المنتفخ القاذف ، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا
على أنفسهم يشيع فيها الهديان من شدة الهول ، رأيت ذلك كله
وما حوى من صور مرعبة ، ولكن رزنى فى أخى كان فاجعة .

لم يصحب موته هول مما أسلفت ، وإنما أسلم روحه مستيقنا
غير معجل ، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا ، أكثر نعومه
فى نحوله ، وأبرز جمالا فى ضعفه ؛ ذهب غير دافع المقلتين ولكنه
عطوف رؤوف ، حزين على من خلفهم وراهم ؛ سار للموت
وفى وجنته نضرة بدت كأنها تهبز بالقبر ! ولقد ذهبت صبعها
فى رقة وهدوء كما يتلاشى فى السماء قوس الغمام ؛ سار وفى عينيه
بريق يكاد ومضه يضى ذلك القبر

الاحجار . كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب ، إذ لم يكن حولي سوى الفراغ والكآبة والظلام . لم يعد ثمة ليل ولا نهار ؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذى كان ينفر منه بصرى الكليل ، لم يبق إلا الفراغ الذى قفى فيه الكون كله فلا أحس سواه ، والوجود الذى لا يرتبط بمكان فى معناه !

لم يعد ثمة سماء ولا أرض ، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر ، لم يكن هناك سوى السكون ، والتنفس الذى لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت .

كنت فى بحر من الخمود الراكد تغشاه الظلمة ، لا تدرك له نهاية ، ولا يسمع فيه صوت ، ولا تحس فيه حركة !

- ١٠ -

طاقت بعقلي بغتة بارقة من النور ؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر ، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد ؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الأذان ! طربت له أذنانى حتى دارت عيناى تتبعان هذه المباغثة السارة ، فى تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا أنى حليف الشقاء ، ولكن حواسى عادت فى خطأ كثيفة إلى طريقها التى ألفتها ، ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولى فى بطء كما كانت من قبل ، ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل ؛ يد أنى رأيت ذلك الطائر فى تلك الكوة التى دخل منها الشعاع يقف مشغولاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة ، بل أكثر ألفة مما لو كان هنالك . كان طائراً جميلاً ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعانى ؛ ولقد خيل إلى أنه تغنى بتلك المعانى جميعاً من أجلى ! وما وقعت عيناى من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شيئاً له أبداً . وبدأ لى كما نما كان يعوزه إلف كما كان يعوزنى إلف ، ولكنه لم يصل إلى نصف ما كنت فيه من وجد ووحشة . وكذلك بدا لى أنما قد جاء ليهبى حبه ، على حين لم يبق لى من يهبى ثانية مثل ذلك الحب . ولقد جعلتني هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر ، ولست أدري أكان أطلق سراحه حديثاً ، أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل على قفصى ! ولكنى أيها الطائر الجليل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك ! وليت شعري لعله زائر من الفردوس تنكر فى جناحين !

ذلك أنى كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخى هبطت إلى . ولتغفر لى السماء تلك الفكرة ، تلك اللحظة التى جعلتني أذرف الدمع وجعلتني أبتسم ، ولكنه فى النهاية ولى بعيداً عني ،

مات لم أسمع له غمغمة ولا أنه تحسر على هذا الذى اتا به قبل أو أنه . لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هى خير وأبقى ، وإشارة طفيفة إلى الأمل أراد بها أن يثيره فى نفسى إذ قد غرقت فى السكون ، وأحسست بفقدان روحى فى ذلك الفقر الذى عظم عندى عن كل فقر .

وأخيراً تواترت وتضاءلت تلك التهنيدات التى كان يحاول كتبائها ، تلك التهنيدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية

أصحت بسمعى ، ولكنى لم أسمع شيئاً ، فصرخت إذ ذهب الملح بلبى ، فمدت فى وحشية المذعور ثم أدركت أنى صرخت عبثاً ؛ ولكن هل لى ما كان لينهه يزجر ، لذلك عاودت الصراخ وأحسبني سمعت صوتاً ، وإذ ذاك فصمت سلسلتى فى وثبة قوية وأسرعت إليه ولكنى لم أجده !

وما فعلت سوى أن رحت أهدق فى تلك البقعة القائمة ، وما أحسست سوى أنى ما زلت حياً وأن رثتى تنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو .

وهكذا انكسرت تلك الحلقة التى كانت تصلنى باللانهاية ، والتى كانت تربطنى بتلك السلالة المضمحلة التى انحدرت منها ؛ انكسرت فى ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات وأعزها جميعاً لى . وبات أخواى أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق

أخذت يدي تلك اليد التى تدلك هامدة ، ولكن يدي واحسرتاه كانت مثلها فى برودتها ، ولم أعد أجد فى نفسى القوة لأن أتحرك أو أناضل ، ولكنى على الرغم من ذلك أحسست أنى ما زلت حياً . وتملكنى ذلك الشعور المضطرم الذى لا يقر ، ذلك الشعور الذى يكون مبعثه أدرا كنا أن الشيء الذى أوليناه محبتنا لن يعود أبداً إلى ما كان عليه . وليت شعري لم يعجزت عن أن أضع حداً لتلك الحياة ؟ لم يعد يربطنى بالأرض أمل . ولكن ظلت لى فيها عقيدتى وهى التى حالت دون أن أقتل نفسى .

- ٩ -

أما ما كان من أمرى بعد ذلك ، فلست أتنبئه تماماً . لا أذكر سوى أننى فقدت شعورى أولاً بالضوء ثم بالهواء ، وأخيراً بالظلمة نفسها . لم أعد أفكر فى شيء أو أحس شيئاً ، ووقفت حجراً بين

وإذن فقد كان من بنى الفناء؛ عرفت ذلك حق المعرفة. وإلا فما كان ليذرفى هكذا في وحدته أحسستها ضعفين: وحدة كنت فيها كما يكون الجسد في أكفائه، أو كما يكون السحاب المنعزل: ذلك السحاب الفريد الذي يترامى في اليوم الضاحى حينما تكون نواحي القبة صافية كلها فيبدو في الجو كمبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض في بهجة

- ١١ -

طراً على حالي نوع من التغير إذ أصبح آسرى ذوى رحمة؛ ولست أدري ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء، ولكن ذلك ما حدث. بقيت سلسلتى المكسورة منفصلة الحلقات، وكانت الحزبة عندي أن أتجول في صومعتي من جانب إلى جانب، وأن أقطعها طولاً وعرضاً، وأن أطأ أرجاءها جميعاً، وأدور حول كل عمود، ثم أعود إلى حيث بدأت، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمي إلا ذينك القبرين العارين: قبري أخوي. ذلك أني كنت اذا ظننت أن وطأة على غير قصد مني قد أهانت مضجعهما الخافض، ينبعث نفسي لاهثاً كئيفاً، وينقلب فؤادي المتحطم ضريراً عليلاً.

- ١٢ -

تسلقت الحائط ولكنني ما أردت الهروب. فقد غال الردى كل من كانوا يحبونني من البشر، ومن ثم صارت الأرض كلها عندي سجناً أكثر سعة بما أنا فيه، لم يكن لي ولد ولا والد ولا ذو قرني، ولا شريك فيما الاتى من شقاء.

ذكرت ذلك فاغتمطت به لأن فكرى في هؤلاء قد أورتني الجنون، ولكنني كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التي تعترضها القضبان. كما كنت أتطلع إلى أن أصوب بصرى مرة أخرى في هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

- ١٣ -

رأيتها لما أتزل على ما كانت عليه، فلم تنل منها يد التغير كما نالت منى في الاغلال؛ ورأيت الثلج الذي يكللها ماتهمند آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة أسفل منها، ونهر الرون الأزرق في أشد فيضه؛ وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة؛ وأخذت عيناى المدينة النائية البيضاء المنازل، كما لمحت القلاع التي تفوقها ايضاً

تجربى مسرعة؛ ثم وقع بصرى على جزيرة صغيرة ترامت حتى لى أنا باسمه، ولم يلح سواها أمام ناظرى؛ جزيرة صغيرة خضراء ظهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلاً، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات، وكانت تهب عليها نسبات الجبل وتجربى بجوارها المياه، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الانفاس.

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جذران السحن؛ ولقد بدا للعين مرحاً: وحداته وجماعاته؛ وأبصرت النسرين يركب متن الريح الهايجة، ويخيل إلى أني لم أره من قبل في مثل تلك السرعة. وعندئذ اخضلت عيناى بدمع جديد وتبلبل خاطرى، ووددت لو أني لم أنطلق من تلك السلاسل، ولما نزلت أحسست كأن الظلة في مأوى الكدر تقع على كأنها حمل ثقيل؛ كانت كأنها القبر ينطبق على من جهدنا في خلاصه، وأحس بصرى وقد انقلب إلى هكذا محزوناً كأنه يطلب راحة كراحة القبر.

- ١٤ -

ولست أدري كم لبثت بعدها في ذلك القبر، ربما كانت شهوراً أو أعواماً أو أياماً. لم أخص لها عدداً ولم ألق إليها بالاً. ولم يك ثمة من أمل يرفع عيني ويمسح عنهما القذى المحزن. وأخيراً أقبل الرجال ليطلقوني من الأسر، فلم أعن أن أعرف ما سبب هذا ولا حفلت أين أذهب، فلقد تساوى في النهاية عندي الفكك والقيد. وتعلمت أن أصلح على اليأس نفسى. ولذلك حين أقبلوا يطلقونى وحين ألقيت جميع السلاسل جانباً، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لى معتكفاً وأصبحت على وقفا؛ وكأني شعرت نصف شعور ساعثين أنهم أتوا يتزعونى من وطن ثان. لقد اتصلت بينى وبين العناكب أسباب الصداقة، وكنت أراقب عملها الدائب، كما كنت أرى الجرذان في نور القمر. وليت شعربى ماذا يدعونى أن أحس أنني دون هؤلاء جميعاً؛ لقد صرنا ألقاً جمعهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع، ولى الحول أن أقتل أنى شئت! ولكننا تعلمنا أن نعيش معاً هادئين، وذلك لعمري من عجيب الأمور! فى ذلك السجن توثقت الألفة بينى وبين الأغلال ذاتها. وهكذا ينتهى بنا طول الاعتياد إلى ما نصير إليه فهأنذا الذى لا قيت ما لا قيت قد تهدت حينما عادت حريقى إلى

القيف